

دراسات محكمة

المنطقة المغاربية وإشكالية هجرة الكفاءات في الحاجة إلى استخلاص الدروس

الحبيب استاتي زين الدين

أستاذ القانون الدستوري والفكر السياسي، جامعة عبد المالك السعدي، المغرب



ملخص:

تُجمع العديد من التحليلات والدراسات المرتبطة بموضوع هجرة الكفاءات في المنطقة المغاربية على دور زوج "الوظيفة والبنية الحاضرة" في تعزيز الاعتقاد بأن تطوير الوضع الشخصي والمهني وتحسينهما يتحقق خارج الوطن لا داخله بغض النظر عن الإكراهات الاجتماعية والنفسية المرتبطة به. تتولد عن هذا الاعتقاد إشكالات كثيرة تستدعي البحث، أساساً، في دوافعه وآثاره على الرأسمال البشري المؤهَّل. بلوغ هذا الرهان، في تقدير هذا العمل، ينبغي أن يأخذ في الاعتبار محددتين متداخلتين: الأول وظيفي مرتبط بسوء التدبير وضعف الاستثمار في الكفاءات الوطنية وتحفيزها معنوياً ومادياً، والثاني قيمي يتعلق بهشاشة حرية الإبداع والتعبير ووجود بيئة عمل عالية الفساد. وإذا كان من الصعب وقف نزيف هدر الكفاءات بشكل تام لأن هذا الأمر ما عاد ممكناً في ظل العولمة، يبدو أنه هناك وعي بضرورة التخفيف من حدّته، والتفكير في تعزيز الحريات الأكاديمية من دعم المؤسسات والمراكز البحثية النشيطة لتيسير الإشراك والاستقطاب في سياق تزايد التنافس الدولي وتنامي الطلب على الابتكار والتجديد العلمي.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، الكفاءات، الدول المغاربية، الاستثمار.

Abstract:

This study investigates Maghreb's brain drain. While it might be difficult - due to globalization - to stop this brain drain entirely, it has become possible to alleviate the damage and think about a way to embrace the emigrated skills in the development of the country of origin. This could be possible through investing in these competences so as to transform them from a loss into a gain, in line with many successful examples.

Keywords: Immigration, Competencies, Maghreb Countries, Investment.

مقدمة

تحتل البلدان المغاربية الخمسة (المغرب، تونس، الجزائر، ليبيا، موريتانيا) موقعاً استراتيجياً بين أوروبا وأفريقيا جنوب الصحراء. تتشارك العديد منها نفس الحدود، كما توجد بينها مجموعة من القواسم الثقافية واللغوية والتاريخية المشتركة¹. غير أن تدقيق النظر في هذا التقارب يوحي بتنوع وتناقض في آن واحد: ظاهرياً، الدول التي تنتمي إلى هذه المنطقة متشابهة، غير أن التحولات الجارية، محلياً وإقليمياً، تنقل إلينا أنه لا توجد صيغة واحدة تسمح بتطبيق أفضل الممارسات في الحكامة² بالنظر إلى الاختلافات الموجودة بينها. لربما لذلك صرح صاحب كتاب "مجمل تاريخ المغرب" عبد الله العروي بأن "فكرة إقامة مغرب عربي متحد، والرغبة في ذلك، والدعوة إلى إقامة الوحدة، كل هذا لا يثبت وجود مغرب عربي في الوقائع، ولا يجعل المغربي يتحدث عن الجزائر وتونس كما يمكن أن يتحدث عنهما جزائري أو تونسي"³. هذا الحال مؤلم ومؤسف إذا جاز لنا أن نستعير لفظ الراحل المهدي المنجرة. العالم العربي أو الأفريقي، في نظره، لم يفهم بعد أن الاتحاد والتكتل ليست مسألة سياسية، وإنما هي قبل كل شيء مسألة بقاء⁴. أزمة الدول المنتمية لهذا العالم معروفة منذ عقود؛ وهي أن النموذج التنموي الذي تم اختياره من طرف المسؤولين، هو عدم الاعتماد على الذات، واللجوء عوض ذلك إلى المساعدة الفنية والتعاون الدولي، في حين أن الحل الوحيد هو الاعتماد على النفس وخلق النموذج التنموي الذاتي⁵. هل هي دعوة للانغلاق كما قد يفهم البعض؟ أبدأ، القول بهذا رضوخ لحركية الزمن ووعي بمجرياتها ومفاجأتها، الإنكار مكابرة وتعام لا غير.

ما تزال خسائر هذه المكابرة قائمة، بل وتتفاقم مع مرور الوقتكما أثبتت جائحة "كوفيد 19" نماذج تنموية لا تُضيق الخناق فقط على فرص الاندماج الاقتصادي التي يمكن أن تخلق سوقاً إقليمية تشمل قرابة 100 مليون نسمة يبلغ متوسط دخلهم حوالي 4 آلاف دولار أمريكي للفرد بالقيمة الاسمية وحوالي 12 ألف دولار على أساس تعادل القوى الشرائية⁶، وإنما تقف متفرجة على صيد طاقاتها البشرية الماهرة وتجنيسها كي تُنسب إبداعاتها بالكامل لدول المقصد (هناك شركات عابرة للقارات متخصصة في استقطاب الذكاء في البلدان النامية). سنويا، يهاجر تقريبا مئة ألف من العلماء والمهندسين والأطباء والخبراء من ثمانية دول عربية هي سوريا ولبنان والعراق والأردن ومصر وتونس والمغرب والجزائر. وإذا كان هذا النوع السلبي من أنواع التبادل العلمي بين الدول يتسم بالتدفق في اتجاه واحد صوب الدول المتقدمة، لأن في هجرة العقول نقلا مباشرا لأحد أهم عناصر الإنتاج، وهو العنصر البشري، لنا أن نتخيل آثار هذه الخسارة في الماضي والحاضر والمستقبل في ظل الدروس والعبر التي يجب أن نلتقطها من تداعيات التحولات الجارية تكنولوجيا وقيمية واجتماعيا واقتصاديا.

¹ نشرت هذه الدراسة في الأصل في مجلة المناهل، الصادرة عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة -قطاع الثقافة- العدد 100 (خريف/ شتاء 2020).

² ألكسندر الداودي في تقديم كتاب: محمد حركات، مفارقات حكمة الدولة في البلدان العربية، ترجمة محمد مستعد (ألمانيا: هانس سايدل، 2018)، 23.

³ "حوار مجلة زمان مع عبد الله العروي"، قنطرة، شوهدي في: 24/10/2020، في: <https://cutt.us/ykT80>

⁴ المهدي المنجرة، قيمة القيم (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2007)، 293.

⁵ المنجرة، قيمة، 294.

⁶ صندوق النقد الدولي (إدارة الشرق الأوسط وآسيا)، الاندماج الاقتصادي في المغرب العربي: مصدر للنمو لم يستغل بعد (واشنطن: صندوق النقد الدولي، 2018)، (ز).

ضمن هذه التحولات، تنبثق إشكالية جديدة/قديمة تتعلق بـ "هجرة العقول أو الأدمغة" - أو نزيها من باب التدقيق - بداية، يذكرنا هذا اللفظ بالتعبير الصحافي الذي أطلق في نهايات الستينيات من القرن الماضي⁷ بعد أن بدأت بلدان غربية مصنعة، كما هو حال إنجلترا وكندا، تفقد بعض كفاءاتها لدول غربية أخرى في حال اقتصاد متقدم مثل الولايات المتحدة الأمريكية.⁸ اليوم، يحيل على كل هجرة يقوم بها العلماء والفنيون والمختصون المهرة الذين يتميزون بخبرة وتأهيل عال في مختلف الميادين الإنسانية والتقنية، من بلد إلى آخر طلبا لرواتب أعلى أو التماسا لأحوال معيشية أو فكرية أفضل.⁹ ولأن هجرة الكفاءات أو العقول **Brain Drain** لا تكون "فرصة" إلا حينما تكون الهجرة ظاهرة طبيعية تساعد على توسيع الخبرة والاطلاع على الثقافات والحضارات الأخرى وتنعكس إيجابيا على المجتمع الذي خرجت منه هذه المجموعات، فإنها تصبح خطرا واستنزافا عندما تتحول إلى ظاهرة مجتمعية تسبب نقصا في الطاقات البشرية المتميزة والقادرة على إحداث التغيير في المجتمع سواء في جانبه الاقتصادي وليس المالي فقط، أم جانبه الثقافي والفكري، أم جانبه الإداري. على هذا النحو، يجدر التنبيه إلى أن عدم توفير الظروف الملائمة التي تجتذب أصحاب الكفاءات وتحفزها على البقاء يشكل إحدى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها البلدان النامية أو التي تسير في طريق النمو، منذ أن باشرت هذه البلدان بوضع البرامج للنهوض بأوضاعها المتردية الموروثة عن عقود طويلة من الحكم الاستعماري والهيمنة الأجنبية.¹⁰

المُرَاقِب والمتابع للبيانات والتقارير المحلية والدولية لأوضاع البلدان النامية، أقله في العقدَيْن الفاتنين، يلحظ تواتر وتزايد عدد ذوي الكفاءات المهنية والعلمية التي تحوز قدرات علمية ومعرفية في نسبة مهاجري البلدان المغاربية، ويوضح بعضها مثلا على مستوى بلدان العالم الجديد (أستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة وكندا) أن معظم المهاجرين إلى هذه البلدان من ذوي الكفاءات التعليمية، وهاجروا بعد الثانية والعشرين، وأتموا تعليمهم الجامعي الأول قبل هجرتهم.¹¹ وعلى الرغم من أن بعض الدراسات يشير إلى أن حجم هذه الكفاءات المهاجرة إلى البلدان المستقبلية للهجرة هي الأقل نسبيا بين بلاد مناطق آسيا وأميركا اللاتينية، فإن هجرتها تبقى عالية بالنسبة إلى مستوى التحصيل العلمي في المنطقة، وتؤثر سلبيا في نقص رأس المال البشري والمعرفي فيها،¹² مع العلم أن هذه الظاهرة لا تقتصر فقط على حملة الشهادات الجامعية العليا من الدكتوراه والماجستير، بل جميع الكفاءات والخبرات في مختلف الميادين الإنسانية والعلمية.

تشير معظم التحليلات والإنتاجات العلمية المرتبطة بموضوع الكفاءات المغاربية المهاجرة - رغم تباعد المدة الزمنية بينها أو اختلاف طبيعتها - إلى دور زوج "الوظيفة والبنية الحاضنة" في تعزيز الاعتقاد بأن تطوير الوضع الشخصي والمهني وتحسينهما يتحقق خارج الوطن لا داخله بغض النظر عن الإكراهات الاجتماعية والنفسية المرتبطة بالاغتراب. تتولد عن هذا الاعتقاد إشكالات كثيرة تستدعي البحث، أساسا، في دوافعه وآثاره على الرأسمال البشري المغاربي المؤهل.

⁷ "هجرة العقل العربي: دور العقول العربية في جعل أمريكا وأوروبا أكثر ابتكارا"، مجلة فكر الثقافية 21 (نوفبر 2017 ويناير 2018): 8.

⁸ نادر فرجاني، "هجرة الكفاءات والتنمية في الوطن العربي"، المستقبل العربي 80 (1985): 79.

⁹ "هجرة العقل العربي"، 8.

¹⁰ مؤسسة الفكر العربي، "الأدمغة العربية المهاجرة: خرج ولم يعد"، نشرة أفق، شوهد في: 22/09/2020، في: <http://bit.ly/2vR4KSd>

¹¹ للاستزادة، راجع الورقة المرجعية للمؤتمر السنوي للعلوم الاجتماعية والإنسانية، في موضوع: "الشباب العربي: الهجرة والمستقبل"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدورة السادسة للعام الأكاديمي 2016/2017، 3-4.

¹² "الشباب العربي"، 3-4.

يرتبط بلوغ هذا الرهان البحثي بمحددتين متداخلتين: الأول ذا طابع وظيفي يرتبط بضعف السياسات العامة في استقطاب الكفاءات الوطنية وتحفيزها معنويا وماديا رغم ما يبذل من مبادرات ومسامح للتخفيف من وتيرتها بلغة الأرقام. لا تغفل هذه النقطة عن التحولات العالمية والإقليمية المتعلقة بالتطور التكنولوجي وتشجيع حرية التنقل وحركية رؤوس الأموال والكفاءات، لكنها تُشدّد على أن الآثار أبلغ وأعمق بالدول التي لا تزال تبحث عن المداخيل الأنسب لتحقيق التنمية المرغوب فيها، خصوصا أن جذب المواهب وتوفير الفرص الملائمة لقدراتها يمتد من المادي إلى الرمزي، ومن الامتيازات المالية إلى الرعاية النفسية والإعداد الجيد لظروف العمل. فأياً اختصاصي كيفما كان موضوع بحثه وتخصصه، إذا لم يجد تلك التسهيلات والتحفيزات الضرورية، فإنه يصبح أمام خيارين: إما أن يضيع كل ما تعلمه، وإما أن يهاجر. والثاني ذا بعد قيمي - بنيوي يشير إلى هشاشة حرية الإبداع والتعبير والمحاسبة إما بسبب عدم القيام بأي شيء كمبرر لعدم القدرة على مواجهة التطورات والاضطرابات المحلية والإقليمية بسبب تعقيدها، أو الاستمرار في الوضع الراهن واستدامته بنفس الممارسات السابقة التي لم تتخلص بعد من الاعتقاد في جدوى "المقاربة الأمنية"، مع ما ينتج عن ذلك من تأجيل فاتورة الإصلاح الاجتماعي والسياسي الضروري والمنتظر منذ عقود. ولنكن على يقين بأن عملية تطوير نظام متميز للتجديد وللابتكار في حاجة إلى ما هو أكثر من وضع نظام مؤسسات ملموسة. الاعتبارات والقيم غير الملموسة تُعدّ حيوية كذلك، بما فيها الشفافية، وسيادة القانون، وعدم السماح بالفساد، ومكافأة المبادرات والمسعى الطموحة، ومناخ صحي للأعمال، واحترام البيئة ونشر مميزات التكنولوجيا والعلوم الحديثة لعموم المواطنين والمواطنين بما في ذلك الأقل حظوظا بينهم. كما يجب أن تعتمد عملية التوظيف والتعيين في المؤسسات العامة بالأساس على خبرة وجدية الأشخاص وليس على اعتبارات ذاتية أو سياسية.¹³ ما يزيد من حدة هذا العجز أن لا أحد يعرف حقيقة أين سينتهي كل شيء. الكثير من المال ينفق على هيئات صورية، ناهيك عن تنامي الإنفاق على أجهزة الدفاع وقوات ضبط الأمن وحفظه. ألن يكون هذا المال أكثر فائدة ومردودية لو استثمر جزء ضئيل منه في تنمية الفكر وفضاءاته تبعا لتعاقدات مضبوطة ومعلومة؟¹⁴ إنه سؤال بريء. في المقابل، التفكير في ما يشهده العلم والتكنولوجيا من تسارع هائل في ارتباط بتغيرات جيو-سياسية عالمية حدثت في السنوات الأخيرة يشكل إحدى محفزات البحث عن الجواب الأنسب له.

1. الهجرة "العالمية" من المغرب الكبير: حالات وحيثيات

من يتفحص مجمل التحولات التي يعيشها العالم، سيدرك أن الهجرة تمثل رهانا إستراتيجيا في العلاقات بين الدول المستقبلية والدول الموفدة،¹⁵ حيث أصبحت حركة اليد العاملة عبر الحدود، لأسباب موضوعية وذاتية، تستقطب عددا متزايدا من الكفاءات في مختلف الميادين، وأصبح المشرق العربي ومغربيه يشكّلان خزانات وطاقات تلبّي حاجات الدول الأوروبية والأميركية والآسيوية، إضافة إلى بعض الدول العربية. من الناحية الجغرافية، تستحوذ أوروبا على المقدار الأكبر من حصة الكفاءات المغاربية المهاجرة في الخارج بنسبة % 86، خصوصا فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، بحكم الروابط

¹³ اليونسكو للعلوم، تقرير اليونسكو للعلوم، نحو عام 2030 (باريس-القاهرة: منشورات اليونسكو - أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، 2018)، 449.

¹⁴ تقديم ميشيل إس دي فريس في: حركات، مفارقات حكمة الدولة، 19.

¹⁵ محمد الخشاني، "هجرة الشباب العربي إلى دول الاتحاد الأوروبي: قراءة نقدية في السياسة الأوروبية للهجرة"، عمران 21 (صيف 2017): 36.

اللغوية والاقتصادية القائمة بين الطرفين منذ عقود طويلة. ثم تأتي قارة آسيا التي تتركز فيها الهجرة بشكل خاص في دول الخليج العربي بنسبة 6 في المئة، ثم أفريقيا وأمريكا الشمالية بنسبة 4% لكل منهما.¹⁶

وفي الوقت الذي أوجدت فيه دراسة هذه الحركة مجالا علميا وبحثيا مستقلا في العقود الأخيرة في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، الملاحظ أنه ما يزال واقع دراسة الباحثين العرب الهجرات الدولية في البلدان العربية، ولا سيما باللغة العربية، سواء ما ارتبط منها بدراسة الهجرات الدولية في المنطقة العربية والمغاربية أو بدراسة الهجرات من هذه المنطقة إلى الخارج، محدودا،¹⁷ مع العلم أنها من المناطق المعنية، بسبب مخلفات الاستعمار، بالتناول العلمي والعملي لمسألة ثلاثية الربح للفاعلين المعنيين: المهاجر والدولة الموفدة والدولة المستقبلة.

يشعر المرء بالفخر لأول وهلة عندما يسمع أو يقرأ عن كفاءات مغاربية تألقت عالميا في الفلك والفيزياء والكيمياء والطب والأدب والفلسفة والقانون وغيرها من المجالات الفكرية. لكن سرعان ما يخبو هذا الشعور عند استحضار الدوافع والحيثيات التي أثرت في اتخاذ قرار استقرار هذا الذكاء خارج حدود الوطن الأصلي. يكفي الرجوع إلى الحوارات أو اللقاءات التي أجريت مع حالات كثيرة لاكتشاف سبب أو أسباب هذا الشعور الممزوج بالاعتزاز والحسرة تجاه علماء ونجباء لم يحظوا بالتقدير والتشجيع الكافيين بينما تبوأوا مناصب علمية راقية وأدهشوا كبريات المؤسسات والمراكز البحثية العالمية بإنتاجات واختراعات مؤثرة وغير مسبوقة في ميدان اشتغالهم واهتمامهم العلمي بعد أن وجدوا الظروف المادية والمعنوية المناسبة للإبداع والتميز.

لفهم هذا الأمر، نتوقف عند بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر، لأن هناك حالات كثيرة لا تتسع الورقة لذكرها على الرغم من الخطوة العلمية التي بلغتها، وأخرى لم تنل حظها من التعريف اللازم، ولم تُسلط عليها الأضواء بما يكفي ليعرف الناس مسارها وإنجازاتها، والأهم اجتهادها في سياقات ومجالات تجعل من الكفاءة وحدها الشرط الأساس للدعم والاحتضان وحتى التجنيس. تحضرنى اللحظة بعض الأسماء في مجال العلوم، منهم التونسيون سفيان كمون من جامعة كامبريدج (University of Cambridge) بالمملكة المتحدة في مجال بيولوجيا النبات، وروجر تمام من جامعة إنديانا بالولايات المتحدة الأمريكية (Indiana University Bloomington) في اختصاص الرياضيات، وهادي مطوسي من جامعة فلوريدا (University of Florida) بالولايات المتحدة الأمريكية في مجال الكيمياء. وقائمة طويلة من المغاربة، أذكر، من باب التمثيل لا غير، كوثر حافطي، مديرة قسم الفيزياء في مختبر "أرغون" الأمريكي الوطني (Argonne National Laboratory)، ومريم شديد، أول عاملة فلكية مغربية وعربية تبا قدمها القطب الجنوبي، ورشيد اليزمي، مخترع بطارية الليثيوم، وصاحب التجارب الطويلة في المختبرات والمراكز العالمية، آخرها الالتحاق بالمعهد الوطني للطاقة في سنغافورة، وكذلك عالم الأحياء الجزيئية ومناعتها منصف محمد السلاوي، ابن عاصمة سوس العاملة، الذي جمع بين الاختراع والتأليف والتدريس بأكبر الجامعات في العالم كما هو حال جامعة هارفرد (Harvard University). هذا إلى جانب طاقات علمية جزائرية من أمثال إلياس زرهوني الرئيس السابق للمعهد الوطني للصحة في الولايات المتحدة الأمريكية الذي يعد أكبر منشأة طبية في العالم بميزانية تفوق ثلاثين مليار دولار سنويا، والفيزيائي نور الدين مليكشي، ومطور "الروبوتات" **The robots** السريعة كمال يوسف تومي.

¹⁶ شاكر طريف، "هجرة الكفاءات الجزائرية إلى الخارج (1991-2015): دراسة في الأسباب والانعكاسات"، عمران 21 (صيف 2017): 118.

¹⁷ عبد القادر الأطرش، "مراجعة في: هاشم نعمة فياض، الهجرة المغاربية الخارجية: هولندا نموذجا"، عمران 12 (2012): 174.

ولئن كان التعميم يضر بالبحث العلمي في علاقة بدوافع هجرة الذكاء المغاربي، ارتأت هذه الورقة الاقتصار على الحوارات التي أجرتها بعض الحالات في المجال العلمي دون أخرى لاعتبارات موضوعية مرتبطة بندرة الكتابات حول هذه الأسماء، بل وانعدام التواصل الإعلامي مع معظمها باستثناء الإشارة المقتضبة في بعض الوسائط الإعلامية الورقية أو الإلكترونية المحلية والخارجية لخبر الاحتفاء بها أو تعيينها في منصب ما في الدولة المضيفة.

بسبب الاهتمام والتفاعل الإعلامي، أمكن التعرف عن قرب على الأسباب الكامنة وراء هجرة العالمين المغاربة رشيد اليزمي وعبد الواحد الصمدي. الأول فاز العام الماضي بجائزة المستثمر العربي (أراب إنفيستور أوارد) في فئة "التطبيقات الخضراء" تقديرا لأبحاثه العلمية واختراعاته، وحصل قبلها بخمس سنوات على جائزة تشارلز درابر التي تمنحها الأكاديمية الوطنية للهندسة في **واشنطن**، عن أعماله في مجال تطوير البطاريات، ما أحدث طفرة في مجال الإلكترونيات المحمولة، وحظي في نفس السنة بوسام الكفاءة الفكرية من ملك المغرب، وبعدها بسنة نال وسام جوقة الشرف في فرنسا،¹⁸ ويتوفر الثاني على ثماني براءات اختراع في مجال صناعة الأدوية لعلاج مرض الزهايمر والباركنسون، كانت آخرها ثمرة الاشتغال مع فريق ياباني، كما وقّع ما يزيد عن سبعة وستين منشورا علميا محكما ذات صلة بمجال تخصصه، وهذا إنجاز كبير إذا ما قورن بمن يتقاسم معه نفس الشغف الأكاديمي.¹⁹

في كل لقاء صحفي، يحرص رشيد اليزمي على التأكيد على ما يملكه المغرب من إمكانات ومؤهلات كبيرة وهائلة. المطلوب تشجيع الناس ذوي الإرادة الصالحة الذين يريدون تحسين مستوى المعيشة.²⁰ الخطاب موجه إلى المسؤولين المغاربة من أجل توفير الدعم للباحثين في الجامعات وللعلماء حتى يساهموا في تطوير وتنمية البلد.²¹ لا يخفي أن رغبته في تطوير قدراته قادته إلى مؤسسات علمية عديدة، غير أن ما أثار انتباهي، دون الخوض في مسببات القرار الأولي للهجرة أو الاستقرار قبل سنوات، أنه لا يجد تفسيراً كافياً للضرر الذي يحدثه بعض المستثمرين المغاربة بصورة المملكة إما بسبب ضعف ثقافتهم وحتى أنانيتهم أو سوء فهمهم وتصرفهم من أجل دعم مشروع إنشاء مصنع بطاريات ليثيوم داخل المملكة تقدر كلفته بمليار دولار، مع العلم أن منطق التجارة، في نظره، يقضي بالربح للجميع والشراكة الموسعة، وفق ضوابط متفق عليها، تحت إشراف فريق بحثي مختص.²² الغريب أن المغرب يراهن على تنويع مصادره الطاقية، ومجموعة من شركات السيارات داخله ترغب مستقبلاً في تطوير محركات الطاقة الكهربائية بناء على دراسات دقيقة موثوق بنتائجها، فلم لا تتم الاستفادة من خبراته وعلاقاته في إحداث سبق عالمي، والأكثر أهمية توسيع "حلم" الأجيال القادمة! هل الأمر يتعلق بعائق سيكولوجي أم بإكراهات مادية أم بضغوطات محلية أو خارجية غير معلنة؟ عسى أن يكون السؤال آلية حجاجية توظف الأجوبة المكبوتة بشأن ضعف احتضان الذكاء الوطني. مع بداية الاستقلال، كان المغرب متقدماً على الصين وعلى كوريا الشمالية، وفي نفس مستوى سنغافورة تقريباً، لكن هذه الدول تفوقت علينا في مجال البحث العلمي بشكل كبير، بل شقت طريقها لتتحول من دول "طاردة" للكفاءات إلى "جاذبة وكاسبة" لها.

¹⁸ حوار رشيد اليزمي في برنامج "مغربون" بقلعة الجزيرة، مسيرة البروفيسور رشيد اليزمي عالم الكيمياء ومكتشف القطب السالب لبطاريات الليثيوم القابلة للشحن، شوهد في: 22/09/2020، في: <https://cutt.us/QCEYe>

¹⁹ حوار عبد الواحد عبد الصمد مع جريدة هسبريس الإلكترونية، شوهد في: 23/09/2020، في: <https://cutt.us/uXOXq>

²⁰ حوار رشيد اليزمي مع موقع تاوانات، شوهد في: 12/10/2020، في: <http://taounate.net/archives/1247>

²¹ حوار رشيد اليزمي مع موقع لكم، شوهد في: 06/10/2020، في: <https://cutt.us/WP9Gx>

²² للاستزادة، يشاهد فيديو حوار "تيل كيل" مع رشيد اليزمي، شوهد في: 22/09/2020، في: <https://cutt.us/gn3s9/>

قريباً من أوجه هذا الضعف، تحدّث العالم الجزائري إلياس زرهوني بحسرة عن قرار مغادرته للجزائر صوب الولايات المتحدة الأمريكية. يقول إن هذه الأخيرة وضعت في الصف الأول "في الوقت الذي وضعه بلده الأصلي الجزائر في الصف الأخير،" مبيّناً أن بداية التفكير في هجرته تمت عقب استشارته لعميد كلية الطب في الجزائر وقتها، ناصحاً إياه بالهجرة إلى أمريكا وجامعاتها²³. بنبرة لا تخلو من خيبة أمل، أكد في برنامج "موعد في المهجر" الذي تبثه قناة الجزيرة أن البلدان العربية، فقدت رغبتها في التفكير، متذكراً كيف أنه تفاجأ خلال اليوم الأول بتواجده في معهد الصحة بأمريكا أن زملاءه أخذوه إلى المكتبة الضخمة للمعهد، وأطلعوه على الكتب المتواجدة فيها، وكان أبرزها وأهمها على الإطلاق، كتاب الحاوي في الطبّ للعالم المسلم أبو بكر الرازي.. وهو الأمر الذي حرّك الكثير من الأحاسيس المختلطة في نفسه، مؤكداً أنه "لا يستطيع ربما العودة للبلدان العربية، وفي مقدمتها الجزائر، لأن الميزانية التي تضعها واشنطن تحت تصرفه تمثل مجموع ميزانيات عدة دول عربية مجتمعة،"²⁴ كما أن هذه الأخيرة في نظره لا تشجع لا العلم ولا التكنولوجيا، عكس ما هو عليه الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية.

لا يختلف مواطنه كمال يوسف تومي مع هذه الفكرة. بكلمات عميقة ومنتقاة بذكاء يؤكد أن الاستثمار في العقل هو أفضل استثمار على الإطلاق لأنه ببناء العقل يمكن بناء المجتمع. وجواباً عن سؤال بخصوص رأيه في مبادرة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر تشجيع الأدمغة الجزائرية المهاجرة على العودة والمشاركة في النهضة العلمية الوطني، يقول: "مبادرة جيدة للغاية، لكن ليس المهم هو عودة الباحثين الجزائريين إلى الوطن، بل دراسة كيفية الاستفادة من أبحاثهم من منظور نقل تكنولوجيا المعرفة، فالجانب النظري في الجزائر ممتاز، لكن مجال التطبيق ضعيف للغاية، ومع الموارد المالية الكبيرة، يجب الاستثمار في مثل هذه التكنولوجيا. دولة سنغافورة أمودجاً، ليس لديها أية ثقافة للبحث العلمي، لكنها استثمرت مبلغ ثلاثة مليارات دولار وتعاقدت مع مركز MIT²⁵ طيلة أربعة عشر سنة في مجال الطب والإعلام الآلي، كما تقوم بانتقاء الباحثين بمعايير جد دقيقة لتكوين علاقات بحث مع أساتذتها وطلبها."²⁶

من أجل الحصول على ما يكفي من المواهب ملء الوظائف التي يحتاجها اقتصادنا المتنامي، كما يقول لي كوان يو Lee Kuan Yew، أول رئيس وزراء لجمهورية سنغافورة (1959-1990)، "شرعت في جذب وإعادة تدريب أصحاب المشروعات والمهنيين والفنانين والعمال المهرة."²⁷ هل نجحت سنغافورة في هذا الطموح؟ الإحصاءات والمؤشرات الاقتصادية تؤكد ذلك، فكيف تحقق الأمر؟ الوعي بدور العلم مهم جداً. أول خطوة الاقتناع بأن قوة الدول تتأثر جذرياً بقدرتها على رعايتها لعلمائها ومدى قدرتها على اجتذاب المواهب. في عام 1980، شكلت الحكومة لجنتين: واحدة لتعيينهم في وظائف مناسبة والأخرى لدمجهم في المجتمع، وبمساعدة مستشاري طلابنا في بعثاتنا في بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا وكندا، توجه فريق من المسؤولين لمقابلة الطلاب الآسيويين الواعدين في جامعاتهم لتحفيزهم على العمل في سنغافورة. وقمنا بالتركيز على الطلاب الآسيويين لأن في سنغافورة مجتمعاً آسيوياً

²³ حوار إلياس زرهوني في برنامج "موعد في المهجر" بقناة الجزيرة، شوهد في: 03/10/2020، في: <https://cutt.us/ldqS8>

²⁴ حوار إلياس زرهوني.

²⁵ MIT اختصار لـ *Massachusetts Institute of Technology*، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بالولايات المتحدة الأمريكية الذي يعد من أهم جامعات الأبحاث القيادية في العالم.

²⁶ محمد بواروايح، "كمال يوسف تومي.. الرجل العبقري والرجل القرآني"، شوهد في: 25/09/2020، في: <http://bit.ly/2TYFG5G>

²⁷ لي كوان يو، من العالم الثالث إلى الأول: قصة سنغافورة (1965-2000)، ترجمة أحمد مختار الجمال، مراجعة علي الدين هلال دسوقي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2014): 206.

يتمتع بمستوى معيشي أعلى ونوعية حياة أفضل مقارنة بأواطنهم، كما يمكنهم الاندماج بسهولة في مجتمعنا. عبر هذا البحث المنهجي عن الكفاءات والمواهب في كافة أرجاء العالم، استطاعت سنغافورة، على خلاف البلدان المغاربية، اجتذاب بضع مئات من الخريجين كل سنة، وقد عوضنا ذلك عما نخسره كل عام من خمسة إلى عشرة في المئة من أفضل خريجينا بسبب هجرتهم إلى الدول الصناعية.²⁸

المستفاد أن استمالة المواهب تطلّب استراتيجية وطنية طويلة الأمد، بينما مشكلة بلدان المنطقة المغاربية أنها لم تخرج بعد من دوامة سياسات رد الفعل والارتباط بالغير إما بمرر، كما سبقت الإشارة، العجز عن التصدي للتطورات والاضطرابات المحلية والإقليمية بسبب تعقيدها، أو الاستمرار في الوضع الراهن واستدامته بنفس الممارسات السابقة التي لم تتخلص بعد من الاعتقاد في جدوى سرديّة "الأمن قبل لقمة العيش." حالة سنغافورة، وغيرها كثير، أبرز دليل على إمكانية التغيير. ليس من اليسير أن تنتقل دولة في ثلاثة عقود ونصف من البحث عن لقمة العيش إلى تحقيق أعلم مستويات المعيشة. سر النهضة يكمن في التقيد بمعايير الحكامة واختيار العقول المناسبة لإحداث الفارق. من جهة، تم التفكير في برامج دراسية لشحذ الذكاء المحلي، ثم فُتحت فيما بعد جسور التواصل مع الباحثين الآسيويين المتميزين في جامعاتهم لتشجيعهم على العمل في سنغافورة الأقرب لثقافتهم والأفضل لطموحاتهم. في محطة ثالثة، توجه الاهتمام إلى البحث عن ألمع الكفاءات والمواهب في كافة أرجاء العالم بعد توفير الآليات والبنيات اللازمة (مختبرات ومعاهد ومراكز علمية بمواصفات عالية الجودة) للاستفادة من خبرتهم ومساعدتهم على إنجاح مشاريعهم البحثية التي ستعود بالنفع عليهم وعلى البلد الذي وثق فيهم. في غياب معايير ورؤى واضحة محفزة على البحث وجاذبة له، تولدت نفسية أو عقلية لا تنظر بتقدير ورضى لتحسين ظروف الاشتغال أو الرفع من تعويضات ومنح البحث العلمي لفائدة الأستاذ أو الطالب. ولعل هذا يقود إلى التأكيد على خطورة وجود هذه النفسيات والعقليات، أو ضعف -إن لم أقل غياب- بيئات حاضنة للتحصيل والتكوين العلميين، ووجود ثقافة معادية للنجاح أو غير مهياة للاعتراف بوجوده أصلا. هنا تحديدا تطفو إلى السطح ثنائية العائق والإمكان في تطوير البحث العلمي، والمراكز البحثية على وجه التدقيق كما سنرى في النقطة التالية.

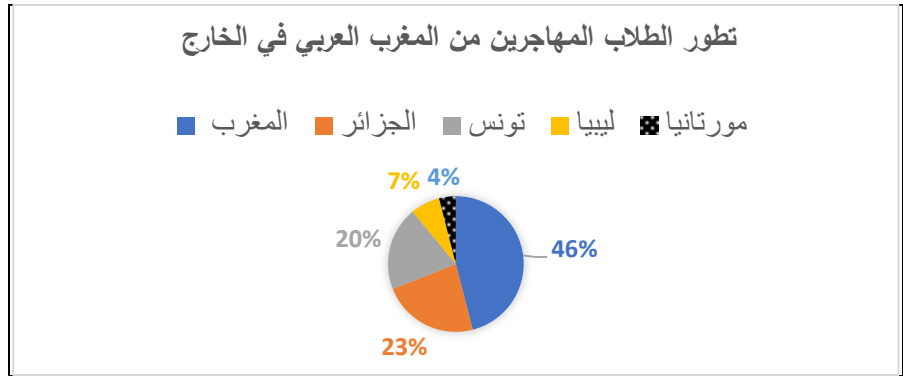
2. بشأن شروط وتحديات المراكز البحثية

سيتمتع الاهتمام في هذه النقطة إلى تحديد العوائق والتحديات التي تحول دون الارتقاء بالبحث العلمي، وهي صعوبات متشعبة: إدارية وشخصية، موضوعية وذاتية، مادية ومالية، تعترض القيام بالدراسات والبحوث والاستفادة منها. وباستقراء مجموعة من الدراسات والتقارير الدولية والإقليمية، وقفت عند مجموعة منها. عقب الإعلان عن قائمة الفائزين بجائزة نوبل، علق الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما قائلاً: "نحن الأمة التي فاز منها ستة من علمائنا وباحثينا بجائزة نوبل وكان كل منهم من المهاجرين." الرسالة أن الولايات المتحدة الأمريكية تستثمر في المواهب القادمة من البيئات الطاردة للكفاءات، ومنها المنطقة المغاربية. هناك أسباب عديدة وراء استفحال ظاهرة هجرة المواهب، ومن ضمنها ضعف الموارد المالية المخصصة للبحث العلمي في المنطقة. وقد حددت الأسس الهيكلية لمعدلات الهجرة المرتفعة من البلدان العربية قبل وقت طويل من بدء الحراك العربي الذي لا تزال تداعياته مستمرة منذ 2011، وهي: مداخل متخلفة، واقتصادات قائمة على المحسوبة، ومحابة، وافتقار إلى حرية التعبير السياسي. أعاققت

²⁸ كوان يو، من العالم الثالث إلى الأول، 206.

هذه الأسباب مشاركة الشباب الاجتماعية-السياسية، خصوصا المهرة وذوي المهارات المرتفعة. في العقد الأول من هذا القرن، شهدت البلدان العربية أحد أعلى معدلات الهجرة لذوي المهارات في العالم.²⁹

لا تتوافر على إحصاءات حديثة مفصلة لمعدلات الهجرة المغاربية أو حجمها بحسب العمر والجنس، لكن المؤكد أن فئة الشباب تشكل أكبر نسبة من مجموع المهاجرين كما تؤكد ذلك البحوث الميدانية.³⁰ لكن اللافت أن نسبة النزوح بالنسبة إلى ذوي مستوى التعليم العالي، حيث يفكر أكثر من نصف الشريحة في الهجرة، مع ما لذلك من انعكاسات متباينة على الدولة الموفدة ودول الاستقبال. وتظل دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، ولا سيما دول الاتحاد الأوروبي وجهة مميزة للطلاب وذوي الكفاءات من الشباب العربي،³¹ خصوصا من دول المغرب الكبير.



Source: Mohamed Saib Musette (ed.), *De la fuite des cerveaux à la mobilité des compétences?: Une vision du Maghreb* (Alger: Centre de recherche en économie appliquée pour le développement(CREAD), 2016), 40.

تبلغ حصة بطالة الخريجين في تونس سنة 2010 ضعف المعدل الوطني تقريبا البالغ % 13 - وازدادت الأمور سوءا عندما بلغت البطالة بين الخريجين % 32.6 عام 2013.³² وفي المغرب، مثلا، تخطى معدل البطالة، في نهاية 2017، % 10,2 مقابل % 9,9 عام 2016، تظل خصوصا الشبان الذين تراوح أعمارهم بين 15 و24 عاما (% 26,5) مع معدل بطالة وصل إلى أكثر من % 42 بين شبان المدن. خلال سنة 2019، كشفت مذكرة المندوبية السامية للتخطيط المغربية معدل البطالة بلغ % 24,9 لدى الشباب البالغين بين 15 و24 سنة مقابل %

²⁹ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية 2016 (نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2016)، 131.

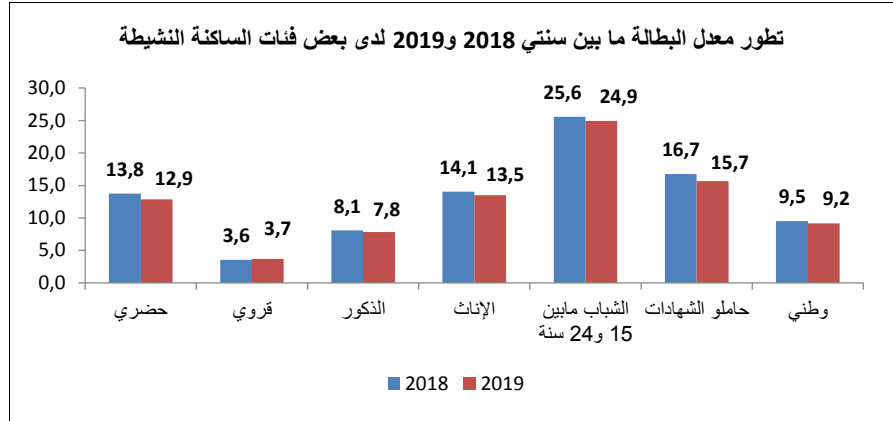
³⁰ للاطلاع على بعضها، يراجع: الأمم المتحدة، الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة، تقرير الهجرة الدولية لعام 2015: الهجرة والنزوح والتنمية في منطقة عربية متغيرة (بيروت: لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا)، 2015)، 75؛ عبد الستار السحباني، الشباب والهجرة غير النظامية في تونس: دراسة ميدانية للتمثيلات الاجتماعية والممارسات والانتظارات (تونس: المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2016)؛ وأيضا:

Fondation européenne pour la formation et Association marocaine d'études et de recherches sur les migrations, *Migration et compétences au Maroc: Résultats de l'enquête 2011-12, sur la migration et le lien entre compétences, migration et développement* (Turin: Fondation européenne pour la formation, 2013).

³¹ الخشاني، "هجرة الشباب العربي"، 38.

³² تقرير التنمية البشرية للعام 2016، 131.

7 لدى البالغين 25 سنة فما فوق. وسجل هذا المعدل في صفوف الحضريين منهم % 39,2 و % 9,9 على التوالي.³³



بدأت البطالة بين الخريجين بالارتفاع في أواخر تسعينيات القرن العشرين، بعد أن سلك العديد من البلدان في المنطقة، في الثمانينيات وأوائل التسعينيات، طريق الإصلاح الاقتصادي والإصلاح الهيكلي، وانضم إلى منظمة التجارة العالمية، وأعاد تنظيم اقتصاداته مع معايير الإنتاجية الدولية؛ أحيانا عبر الخوصصة، ما أدى إلى تخفيضات قاسية في الوظائف العامة التي كانت سابقا المستوعب الأكبر للخريجين. أدخلت هذه الإصلاحات البلدان المغاربية في الأسواق المعولمة؛ كما أجبرت أرباب العمل بها على الاستثمار في قطاعات اقتصادية كثيفة العمالة ومنخفضة القيمة المضافة.³⁴ تأثير هذه التحولات على الأجور، يمثل، في جميع أنحاء العالم - والهشة على نحو خاص - الدافع الرئيسي للهجرة الاقتصادية من البلدان منخفضة الدخل إلى البلدان مرتفعة الدخل.³⁵

ولأن هذا التدفق له تأثيرات متفاوتة على المردودية الاقتصادية، التفكير جار كالعادة على المستوى الدولي في أنسب الطرق للاستفادة من الطاقات المختلفة الوافدة عليها. تقول أسلي ديمرجوك كونت، مديرة البحوث في البنك الدولي، إن "البحوث حول تأثير الهجرة على سوق العمل قاطعة: الفوائد الاقتصادية كبيرة وطويلة الأمد. علينا أن نطبق سياسات لمعالجة التأثير المرتبط بتوزيع تدفقات الهجرة على المدى القصير للحيلولة دون فرض قيود صارمة على الهجرة تضر بالجميع."³⁶ المثير للانتباه في هذا التصريح هو الحديث عن الفوائد التي تجنيها دول الاستقبال من الهجرة. إلى جانب ربح يد عاملة جاهزة، تستفيد هذه الدول من هجرة الكفاءات والمهارات المغاربية المكونة، والتي تمثل صفة النخبة الأكاديمية والعلمية نحو أوروبا وأمريكا وكندا ودول الخليج. الآلاف منهم هجروا البلاد لاكتساب خبرات جديدة، ولكن غالبا ما يهاجرون بحثا عن رواتب أعلى وظروف عمل أفضل. الغريب أن السلطات تتفادى الحديث عن هجرة الأدمغة، بل الأدهى أنها تنظر إليها كرد فعل طبيعي على طموح الإنسان للترقي الاجتماعي أو أنها مؤشر على جودة التعليم والتكوين في دولهم.

³³ المندوبية السامية للتخطيط، مذكرة حول مميزات السكان النشيطين العاطلين، شوهدي في: 29/09/2020، في <http://bit.ly/39bUcFh>.

³⁴ المندوبية السامية للتخطيط، مذكرة.

³⁵ تستقطب البلدان الأوربية الهجرة المغاربية. تونس في الصدارة، تليها الجزائر، ثم المغرب.

³⁶ بيان صحفي رقم: DEC/185/2018 صادر عن البنك الدولي عقب صدور تقريره حول الهجرة العالمية (14/06/2018)، شوهدي في: 03/10/2020، في <https://cutt.us/R3DKg>.

إنها رؤية قاصرة في جميع الأحوال،³⁷ والأكد أن وقف نزيف هجرة الذكاء الوطني أو التخفيف من حدتها مسؤولية مشتركة تستلزم تعبئة وطنية من قبل جميع القطاعات الوزارية للارتقاء بالنسيج الاقتصادي عبر تشجيع البحث العلمي وحفز التميز فيه حتى لا يصبح لقب الدول المغاربية بالبلدان "الطاردة للأدمغة." تونس تصدر هذه البلدان من حيث هجرة الكفاءات. أوردت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية السنة الماضية أن 95 ألف مهارة تونسية اختاروا مغادرة بلدهم بطرق رسمية عبر الوكالة التونسية للتعاون الفني منذ 2011، منهم 8500 كفاءة في مجال التعليم العالي، وتزيد نسبة النساء ضمنهن عن 10 في المئة.³⁸ حسب تقرير التنمية البشرية في العالم العربي لسنة 2016، تحتل تونس المرتبة الثانية عربيا في تصدير الكفاءات العلمية إلى الخارج. يُقدر عددها في كل الأصناف بحوالي 180 ألفا. الهندسة والطب والبحث العلمي والتعليم الجامعي والقضاء هي أكثر الاختصاصات رواجاً بسبب عروض أوروبية وأمريكية مغرية. يأتي المغرب في المرتبة الثانية، إذ تشير البيانات الصادرة عن فدرالية التكنولوجيات والاتصال والأوفشورينغ أن المعاهد الوطنية، على سبيل المثال، بمختلف أنواعها تُخرج ما بين 7 و8 آلاف كفاءة سنويا،³⁹ تفقد منها المملكة حوالي 20 ٪ لأنها تختار الهجرة إلى الخارج رغم أن هناك حاجة شديدة لهم في سوق الشغل. وتحت عنوان "هروب العقول متواصل باطراد في الجزائر" كتبت صحيفة "ريفليكسيون" الجزائرية الناطقة بالفرنسية في السابع من فبراير 2019 أن الجزائر فقدت ما لا يقل عن مائة ألف شخص من حاملي الشهادات العليا منذ عام 1990. ما السبب؟ وهل من تغيير في هذا البعد السببي مقارنة بما كان عليه الوضع في العقد السادس من القرن الماضي؟

لم تعد عوامل هجرة الكفاءات العربية، ومنها المغاربية، خافية أو غير معروفة، فقد أبانت العديد من التحليلات والدراسات - رغم تباعد المدة الزمنية بينها - عن وجود سببين رئيسيين: يتمثل الأول في أن أي اختصاصي كيفما كان موضوع بحثه وتخصصه، حين ينهي دراسته وأبحاثه، يحتاج - سواء من درس بالداخل أو من عاد إلى بلده بشهادة من الخارج- إلى بنية تحتية تشكل حدا أدنى من الجامعات والمختبرات، حتى يتمكن من تنمية ما تعلم في الكليات والمعاهد. وإذا لم يجد تلك التسهيلات، فإنه يصبح أمام خيارين: إما أن يضيع كل ما تعلمه، وإما أن يهاجر.⁴⁰ يرتبط السبب الثاني بحرية التعبير.⁴¹ الجامعات ومؤسسات التعليم العالي ومراكز البحوث في العديد من البلدان "المنفرة للمواهب" عانت - وما زالت تعاني - من ضعف الحريات الأكاديمية وندرة في عدد المراكز البحثية.⁴² إن الحكامة (أو الحوكمة أو الإدارة الرشيدة) تصاحب كل خطوة تقدم للأمام في كل مرحلة من مراحل النمو المدفوع بالابتكار. على الطرف الآخر من الإبداع، وجود بيئة عمل عالية الفساد تكون عاملا مثبطا قويا أمام ظهور منافسة مدفوعة بالابتكار. لذلك، سيكون لدى الشركات حافز ضعيف للاستثمار في البحوث والتنمية إذا لم يطمئنوا إلى إمكانية

³⁷ الظروف التي ترغم الناس على ترك منازلهم وأوطانهم والهجرة أو اللجوء إلى مناطق وبلدان أخرى يمكن أن تكون مؤلمة وصادمة للغاية. فهؤلاء، سواء عبروا البحر الأبيض المتوسط بصورة قانونية أو عبر قارب مكتظ وغير آمن، تترك تجربتهم ندوبا عميقة في نفوسهم، ولا سيما في نفوس الذين شهدوا وعانوا تجربة الأيمة أو مهينة أو غير محفزة على العطاء لفترات معينة من الزمن، منقطعة كانت أو دائمة. ولا تنتهي معاناتهم عند هذا الحد، فأولئك الذين يحالفهم الحظ في العثور على عمل وملاذ آمن لا يسلمون، في الكثير من الحالات، من الإقصاء أو التمييز في المجتمعات المضيفة. منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، ورقة توجيهية حول: التعليم كوسيلة للتعاي: معالجة صدمة النزوح من خلال التعلم الاجتماعي والعاطفي (باريس: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، أبريل 2018).

³⁸ يتوزعون على النحو التالي: 2300 أستاذ باحث ومثلهم مهندسون إضافة إلى 1000 طبيب وصيدي و450 تقنيا والبقية اختصاصات أخرى.

³⁹ كشفت فدرالية التكنولوجيات الحديثة والاتصال أن 8000 من الأطر عالية المهارة، التي يتم توظيفها في القطاعين العام والخاص، تهاجر سنويا إلى الخارج.

⁴⁰ المنجرة، قيمة، 294.

⁴¹ المنجرة، قيمة، 294.

⁴² من المحيط إلى الخليج العربي، سبقت الإشارة إلى أنه يوجد أقل من ستة مئة مركز بحثي فقط ومعظمها يوجد داخل الجامعات، بينما في فرنسا وحدها 1500 مركز.

الاعتماد على النظام القضائي للدفاع عن ملكيتهم الفكرية. كما ترتفع في البيئات الفقيرة في معايير الحكامة احتمالات وقوع حالات الاحتيايل العلمي.⁴³

بلغة الأرقام، لا تزال كثافة البحث والتطوير منخفضة في الاقتصاديات النفطية حيث أن إجمالي الناتج المحلي المرتفع يجعل ذلك صعبا. على الرغم من أنه يمكن للدولة أن تجمع ثروة معتبرة من خلال استخلاص الموارد الطبيعية، إلا أنه نادرا ما يكون النمو الاقتصادي المستدام مدفوعا بالاعتماد على الموارد الطبيعية وحدها. ألم تؤكد نهاية أحدث طفرة سلعية، مقترنة بانهيار أسعار النفط العالمية منذ عام 2014، ضعف أنظمة الابتكار الوطنية في مجموعة واسعة من البلدان الغنية بالموارد الطبيعية، والتي تكافح حالياً لتبقى قادرة على المنافسة؟

يعد ضعف الإنفاق المحلي الإجمالي في مجال البحث العلمي والتطوير أحد أبرز مصادر تخلف المؤسسات الجامعية والمراكز البحثية العربية، وضمنها المغربية، في التصنيف العالمي.⁴⁴ لطالما نبهت العديد من الدراسات المسحية إلى هذا العامل، حيث لا تتجاوز نسبته في البلدان العربية % 0,3، وهو ما يعني أن نصيبها من الإنفاق الإجمالي العالمي على هذا المجال لا يتجاوز واحدا في المئة، دون احتساب الأضرار الناجمة عن الصرف النوعي لهذا الإنفاق، حيث تلتهم أجور الأساتذة والباحثين قسما مهما منها، دون أن تخضع لمعايير موضوعية مبنية على كفاءة الإنتاج العلمي ونوعيته، ودون أن ترتبط بمعيار التقييم المستمر لأداء الأساتذة، والتحفيز المبني على النتائج المحصل عليها بشكل موضوعي.⁴⁵ نسبة الإنفاق على البحث العلمي والتطوير من إجمالي الناتج المحلي في المغرب وتونس (حوالي 0.7 %) قريبة من المتوسط بالنسبة للاقتصادات متوسطة الدخل العليا. علاوة على ذلك، ارتفع هذا المعدل منذ بداية الربيع العربي في أكبر بلد عربي من حيث عدد السكان، مصر: من % 0.43 (2009) إلى % 0.68 من إجمالي الناتج المحلي (2013)، وقد اختارت الحكومة أن تشارك مصر في المسير نحو التحول إلى اقتصاد المعرفة وذلك بغرض تنويع مصادر الدخل.⁴⁶

إذا قارنا نسب الإنتاج القومي الخام المخصصة للبحث العلمي في عام 2016 في الغرب (% 1.7) في بريطانيا، و% 1.9 في الاتحاد الأوروبي، تبقى النسب العربية متواضعة. نجد في رأس القائمة العربية % 1.02 في تونس، ثم % 0.64 في المغرب، و% 0.34 في الأردن، وفي نهاية القائمة الكويت (% 0.09)، السعودية (% 0.05)، والبحرين (% 0.04) حسب تقرير لليونيسكو؛ وقد خلص التقرير إلى ضرورة العمل على تنسيق الجهد بغية ضمان توازن بين البحث العلمي الأساسي الموجه لاستغلال العلم والتقانة من جهة، والبحث العلمي الموجه صوب مشكلات التنمية من جهة أخرى، وذلك نظراً إلى ضآلة نسب الإمكانيات المادية المتاحة.

نضيف إلى ذلك أن نسبة الإنفاق المحلي الإجمالي للدول العربية كلها على البحث والتطوير بالنسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي لا تزال هزيلة جدا. لم تبلغ هذه النسبة سنة 2013 واحدا في المئة من الإنفاق المحلي الإجمالي العالمي إلا بعد جهد بالغ، أي ما مجموعه 15 مليار دولار من أصل إنفاق عالمي بلغ 1477 مليار دولار. في العديد من الدول العربية، يتم الجزء الأكبر من الإنفاق على أنشطة البحث والتطوير من خلال القطاع الحكومي، يليه قطاع التعليم العالي، بينما يضطلع القطاع الخاص بدور ضئيل أو لا يؤدي أي دور في المشاريع البحثية. في مصر تقدر أكاديمية البحث

⁴³ اليونسكو للعلوم، تقرير اليونسكو للعلوم، 27.

⁴⁴ تقرير جامعة "شانغهاي جياوتونغ" لسنة 2019 الخاص بتصنيف أفضل الجامعات في العالم.

⁴⁵ امحمد مالكي، "مكانة الجامعات العربية في تصنيف شانغهاي لعام 2019"، شوهدي في: 13/10/2020، في: <http://bit.ly/2NoM3Lw>.

⁴⁶ اليونسكو للعلوم، تقرير اليونسكو للعلوم، 27.

العلمي والتكنولوجيا المصرية بأن القطاع الخاص ساهم بحوالي 5 % فقط من حجم الإنفاق على البحوث في مصر. ومُثل دول الأردن والمغرب وعمان وقطر وتونس والإمارات العربية المتحدة استثناء من هذه القاعدة، حيث تقدر "إيراوتش Erawatch" أن القطاع الخاص يظلم بثلاث حجم الإنفاق على البحث والتطوير في الأردن، ونسبة 30 % في المغرب (في 2010)، ونسبة 29 % في الإمارات العربية المتحدة (في 2011)، ونسبة 26 % في قطر (في 2012) ونسبة 24 % في عمان (في 2011). ويقترب الرقم إلى نسبة 20 % في تونس، طبقاً لمعهد اليونسكو للإحصاء. كما تقوم المشروعات الربحية بتمويل 24 % من الإنفاق على البحث والتطوير في قطر، ونسبة 20 % في تونس.⁴⁷

على الرغم من أن عدد الباحثين في البلدان العربية كلها قد شهد ارتفاعاً من 122900 باحث عام 2007 إلى 149500 باحث عام 2013، لكن نسبتهم من عدد الباحثين في العالم بقيت قارة أي 1.9 %. أما نصيب العالم العربي من المنشورات العلمية، من خلال تقرير اليونسكو لسنة 2018، فقد بلغ 29944 بحثاً منشوراً في عام 2014، لكن هذه النسبة لم تتجاوز 2.45 % عالمياً. كما بلغ عدد المنشورات العلمية نسبة إلى كل مليون نسمة 82 بحثاً سنة 2013، لكنه بقي أقل من نصف المعدل العالمي البالغ 176 بحثاً منشوراً لكل مليون نسمة. ولئن كان عدد براءات الاختراع العربية المسجلة قد شهدت قفزة مهمة بين عامي 2008 و2013 من 99 إلى 492 براءة اختراع، غير أن هذا الرقم لا يشكل سوى 0.2 % على المستوى العالمي. ماليزيا وحدها سجلت 566 براءة اختراع. وحيث أن عدد سكان العالم العربي يبلغ نحو 330 مليون نسمة وعدد سكان ماليزيا نحو 26 مليون نسمة، فذلك يعني أن معدل الإبداع في ماليزيا يزيد 15 ضعفاً على معدل الإبداع في الدول العربية مجتمعة.⁴⁸

على مستوى الإنتاج العلمي العربي، يسجل تحسن نسبي، بحيث يبلغ حالياً نحو 72 % من مثيله في إسرائيل، بينما كان يبلغ 40 % في عام 1967. لكن هذا التحسن بطيء نتيجة التعثر في مسارات البحث والنشر بسبب الافتقار إلى التقاليد الراسخة في البحث العلمي، وغياب الخطط البحثية، وشح التمويل، وتراجع أعداد الباحثين العرب مقارنة بالدول المتقدمة.⁴⁹ يوجد في مصر 650 باحثاً لكل مليون نسمة، وهو أعلى المعدلات العربية، في حين يوجد في كوريا الجنوبية نحو 4600 باحث لكل مليون نسمة، أي أكثر بثمانية أضعاف. حركة البحث والنشر العلمي ما تزال ضعيفة على المستوى العربي؛ معدل المنشورات العلمية لكل مليون ساكن في العالم العربي بلغ 33.2 في عام 2003، وهو أدنى من معدل كوريا الجنوبية بأكثر من عشرة أضعاف. وقد ارتفع هذا المعدل في العالم العربي منذ عام 1981 ثلاث مرات فقط، في حين زاد في الصين 36 مرة.

مع ذلك، يلاحظ بعض الباحثين وجود بعض المؤشرات الإيجابية في بعض المجالات في السنوات الأخيرة، فقد جاءت كل من تونس وعمان وقطر والكويت والسعودية في مراتب متقدمة في مؤشر التميز والكفاءة لمراكز البحوث والتطوير العربية، وذلك على التوالي: 36، 38، 45، 46، 52، من بين 127 دولة في العالم بحسب تقرير المنتدى الاقتصادي العالمي.

⁴⁷ اليونسكو للعلوم، تقرير اليونسكو للعلوم، 425.

⁴⁸ اليونسكو للعلوم، تقرير اليونسكو للعلوم، 426-425.

⁴⁹ هيثم مزاحم، "أزمة البحث العلمي في العالم العربي"، شوهدي: 09/10/2020، في: <http://www.beirutme.com/?p=25817>

إن هذه المؤشرات تجعلنا نثير أهم تساؤل بشأن الرفع من أداء البحث العلمي عامة، وهذه المراكز بشكل خاص، والمتمثل في: بأي شروط ومتطلبات سنضمن الرقي بوظيفة هذه المراكز شكلا وفكرا؟

أول شرط/تحدٍّ هو "الاستقلالية" أي جعلها أقدر على الاستقلال بذاتها، وممارسة عملها واجتهاداتها دون ضغط، أو وصاية وتوجيه. علميا، تحتاج مراكز الفكر إلى الاستقلال الذاتي أو الاستقلال المالي وهو أمر غير بديهي. حسب الترتيب الدولي، من بين معايير اختيار أفضل المراكز البحثية أداء، يتم استحضار ما يلي: القدرة على الحفاظ على الكفاءات البشرية، ومستوى التنظيم المالي، والميزانية، وعدد العقود المبرمة مع القطاع الخاص، وهو ما يسمح بتقييم درجة استقلالية المراكز وقدرتها على حماية نفسها من تضارب المصالح، من أجل إنتاج تقارير موضوعية وموثوقة ونقدية.⁵⁰ أما عندما تكون هذه المراكز خاضعة للسلطة، وموجهة من قبل أجهزة الدولة، وغير قادرة على التحكم في تفكيرها واجتهاداتها، يتعذر عليها، والحالة هاته، التحول إلى رافعة خلاقية لإرشاد صناع القرار، وإسعافهم في حسن صياغة القرارات.. والحال أن المتابع للشأن العربي عموما، والمغربي على وجه التحديد، لا يجد صعوبة في فهم حال "مراكز الفكر" التي خرجت من تحت عباءة السلطة، وتشتغل وفق أجندتها وإملاءاتها.⁵¹ لذلك، فالاستقلالية شرط عين، كما يقول الفقهاء، لميلاد مراكز فكر قادرة على التأثير الإيجابي في صنع السياسات، والمساعدة على ترشيد القرارات حيال التحديات والأزمات التي تضغط على الدول المغاربية.

في هذا الإطار، نشير إلى أنه غالبا ما تتضمن النصوص التأسيسية لمراكز البحث العلمي التأكيد على أنها لا تقبل الهبات ولا التبرعات المشروطة، بل إن بعض هذه الهيئات مثل مركز بروكنجز الأمريكي ومركز الدراسات الدولية والإستراتيجية بأمريكا أيضا يرفضان تمويل مشاريعهما البحثية من طرف الحكومة إلا بنسب محدود قد لا تتعدى قيمة % 15 كأقصى حد، وهي بذلك تريد أن تحافظ على استقلالها تماما.⁵² على خلاف ذلك، الواقع في البلدان المغاربية يثبت أن الاستقلال يبقى أمرا مستعصيا طالما أن المراكز فيها لا تمتلك القدرة المالية ولا حتى الحرية السياسية اللازمة على تنفيذ مشاريعها، كما أن قدرتها على التجرد من التأثيرات الإيديولوجية وعلى الموضوعية العلمية تبدو أقل بكثير من نظيراتها في بلدان أخرى أصبحت تعتمد كثيرا على المخرجات لهذه الهيئات في رسم سياساتها نظرا لحجم المصدقية والثقة التي تحظى بها هذه الهيئات.

تحتاج مراكز الفكر، باستمرار، إلى وسائل لوجستية وبشرية ومالية كبيرة لكي تقوم بعملها على أحسن وجه. بيد أن الدول والمقاولات والجماعات الترابية في البلدان المغاربية ليست لها تقاليد في مجال تمويل البحث العلمي واقتصاد المعرفة، إما بسبب عدم دراية الفاعلين بدور هذه المراكز وأهميتها بالنسبة للدولة والمقاولة في عملية صناعة القرارات الاستراتيجية، أو توجسا منها مخافة أن تكون إنتاجاتها تقييما سلبيا لأنشطتها أو غير متناسبة مع اختياراتها بغض النظر عن موضوعيتها، خصوصا إذا اعتبرنا أن مراكز الفكر تمثل بالدرجة سلطة مضادة.⁵³ غير أن التضاد هنا لا ينظر إليه من جانب الصراع أو التنازع دائما بقدر ما يحيل إلى إن اتخاذ مسافة معينة من السلطة.

من هنا، يرتبط مطلب الاستقلالية، في جزء كبير منه، بالإكراهات البشرية والمالية؛ وبما أن مراكز البحث العلمي تحتاج كأى نشاط منظم إلى الخبرة والمال، يبقى البحث عن موارد مادية لتمويل حاجياتها هو الهاجس الأكبر لكل المراكز البحثية. بدون توفر هذه الموارد واستقرارها، فلا سبيل إلى تنفيذ البرامج والخطط البحثية التي ترسمها المراكز

⁵⁰ حركات، مفارقات حكامه الدولة، 105-106.

⁵¹ امحمد مالكي، "الأدوار المطلوبة من مراكز الفكر العربي." شوهد في: 14/10/2020، في: <https://cutt.us/7zh49>

⁵² محمدمو ولد محمد المختار، "مراكز البحث العلمي في موريتانيا: سياق النشأة وتحديات الواقع." شوهد في: 08/10/2020، في: <http://aqlame.com/article12767.html>

⁵³ حركات، مفارقات حكامه الدولة، 105.

لنفسها. إذا كانت السمة المشتركة بين جميع المراكز البحثية المغاربية هي وجودها في بيئة عامة - ببعديها الرسمي والاجتماعي - لا تقدر بشكل كاف دور هيئات البحث العلمي ولا تحظى منها بأية رعاية أو دعم، يسهل أن نتوقع مدى تأثير ذلك على قدرتها على الاستقلال العلمي أو السياسي بما في ذلك إمكانية وقوعها في حائل التمويل الأجنبي رغم المخاطر الكبيرة التي قد تتعرض لها جراء ذلك، بحكم أن كل ممول أجنبي له أهدافه المعلنة والخفية من تمويل الأنشطة، والأيسر له الحصول على كل المعلومات التي يبحث عنها من هيئة وطنية ربما تمتلك من الدراية والمعرفة بالمجتمع ما لا سبيل للأجنبي إلى فهمه أو معرفته.⁵⁴

المفارقة الحبلية بالتساؤلات، في هذا المنحى، أن نسبة الإحصائيات المتعلقة بحجم الأموال التي ترصدها الحكومات المغاربية للتسلح مرتفعة، خاصة خلال السنوات الأخيرة مع بروز التهديدات الإرهابية، والتطور الهائل الذي يعرفه ميدان التكنولوجيا العسكرية. ولإشكال في هذه المعادلة يقع بسبب اختلال تحديد الأولويات. الدول الكبرى حينما تنفق على التسلح يكون ذلك لأهداف دقيقة مرتبطة في الغالب بأجندات طويلة الأمد، على عكس البلدان المغاربية التي لا يخرج فيها هذا النوع من الإنفاق عن دائرة "التسلح من أجل التسلح" أو "التسلح لإرضاء صانع السلاح." دخول هذه الدائرة مكلف، والخروج والحالة هاته أيضا مكلف وبالقدر نفسه. القول بهذا رضوخ للواقع، لكنه بالتأكيد ليس قدرا.

للإشارة، يمكن تقسيم الدول المغاربية إلى ثلاث مجموعات وفق العلاقة بين حجم الإنفاق العسكري الحكومي والنتائج المحلي الإجمالي. المجموعة الأولى (دول ذات نفقات عسكرية معتدلة نسبيا ترصد أقل من 5% من الناتج المحلي الإجمالي للأمن والدفاع - تونس - 4.0%؛ المجموعة الثانية دول ذات نفقات عسكرية مرتفعة تخصص مبالغ تتراوح بين 5% و 10% من الناتج المحلي الإجمالي للدفاع والأمن، وهي السودان واليمن والبحرين والعراق والأردن، علما بأن حجم الإنفاق العسكري العراقي البالغ 13395 مليون دولار في العام 2012 يعادل الإنفاق العسكري للدول الأربع الأخرى في هذه المجموعة إضافة إلى تونس مجتمعة. والمجموعة الثالثة تخص الدول ذات النفقات العسكرية المرتفعة جدا التي تفوق 10% من الناتج المحلي الإجمالي. وهي الجزائر والمغرب وليبيا إلى جانب المملكة العربية السعودية وسوريا.⁵⁵

ثاني هذه المتطلبات ذات طبيعة سوسيولوجية مرتبطة بالثقافة في مجال المهيمنة في مجال إنتاج المعلومة وقدرة المراكز الفكرية على تلبية الطلب المتزايد للمواطن على الشفافية والديمقراطية. دولة القرن الواحد والعشرين تواجه معضلات الحكم وسلطة البيروقراطية وتزايد نفوذها. في هذا الاتجاه، يمكن أن يؤثر العجز الديمقراطي وما قد يرتبط به من اختلالات تمس السلطة التسييرية وأجهزة الرقابة، والإعلام بمختلف أنواعه، ومدى استقلالية القضاء...إلخ، بصورة سلبية على عمل هذه المراكز وفعاليتها، مع العلم أن مطلب الجودة له ما يبرره، لأن المراكز البحثية تحتاج، علاوة على الاستقلالية، إلى قدر عال من العلمية في منجزاتها، أي في أدائها واجتهاداتها. وهو رهان لن يتحقق هذا الأمر بدون امتلاك المراكز رؤية وأهداف واستراتيجية واضحة ترتكز، بالأساس، على العقل والعلم. ومعلوم أن ذلك لن يتأتى دون الانفتاح على الكفاءات البشرية ذات الجدارة والاستحقاق.⁵⁶ إن الأمم العظيمة، كما يقول أحد الباحثين، هي التي

⁵⁴ ولد محمد المختار، "مراكز البحث العلمي."

⁵⁵ اليونيسكو للعلوم، تقرير اليونيسكو للعلوم.

⁵⁶ مالكي، "الأدوار المطلوبة."

تستطيع، هنا والآن، إدخال ممارسات ثورية⁵⁷ في إدارتها لبلوغ التغيير المنشود. لذلك، ينبغي أن تعمل مراكز الفكر على التقييم الدائم لأدائها، ودرجة مشاركتها في عملية تنشيط أنظمة الحكامة الشاملة الحالية.

أما شرط الارتقاء والنجاح الثالث، فيتعلق بضرورة خلق جسور تواصل موضوعي بينها وبين مؤسسات الإعلام، وتحديد الإعلام المستقل، لإمداده باجتهاداتها وتحليلاتها، وكل ما تنجز من إنتاجات جيدة. مراكز فكر بهذه المواصفات تستطيع أن تكون روافع لصياغة السياسات الرشيدة والقرارات المؤثرة في الدول المغاربية. لكن هذا لا يتم بطبيعة الحال دون توفير المناخ العام الملائم. كيف ذلك؟

لمعرفة الجواب دعونا نتوقف قليلا عند الجملة الآتية التي أقتبسها من تقرير اليونيسكو الأخير: إن وجود بيئة عمل عالية الفساد تكون حافز سلبى قوي تضاد ظهور منافسة مدفوعة بالابتكار. بمعنى أنه لا بد من الحكامة (أو الإدارة الرشيدة) التي تصاحب كل خطوة تقدم للأمام في كل مرحلة من مراحل النمو المدفوع بالابتكار.⁵⁸ غياب الفساد في النظام الجامعي، مثلا، يعد متطلبا أساسيا لضمان أن خريجي تلك المؤسسات هم فعلا مؤهلون للتخرج.

إلى جانب التحديات العامة السابقة، توجد تحديات مجتمعية خاصة بنا نحن مجتمعات الضاد (ذات ارتباط شديد بمجال القيم والمواطنة الحقّة)، لعل أهمها تحدي عدم الاكتراث بمخرجات البحث العلمي من قبل المسؤولين ومدبري الشأن العام، فهم يعتقدون أنهم الأقدر على فهم وحل المشكلات التي تواجههم، ولا حاجة بهم إلى المشورة من أي كان وخاصة من الهيئات الوطنية البحثية. وتحدي الحذر من الأفكار الجديدة وتحدي عدم توفر المعلومات والاحصاءات والبيانات العلمية الحديثة، تحدي عدم الثقة في هيئات البحث والوطني، وخاصة فيما بين مراكز البحث الخاصة أو المستقلة والمؤسسات الرسمية في الدولة، مما يجعل هذه الأخيرة تفضل إجراء الدراسات من طرف هيئات البحث والخبرة الأجنبية، غم قدرة الهيئات الوطنية في فهم الأوضاع والمشكلات المحلية أكثر من غيرها. تحدي غياب نظام للحوافز مما يجعل الكفاءات العلمية تعزف عن الانخراط في خدمة هذه المراكز. تحدي ضعف القدرات التسويقية للمنتجات العلمية التي تصدر عن بعض المراكز رغم تكلفتها الباهظة، مما يؤدي بها إلى الحد من هذا المجهود. تحدي التحرر من التبعية السياسية بسبب سعى أصحاب المصالح من أحزاب سياسية أو نافذين سياسيين إلى جعل هيئات البحث العلمي مجرد واجهات أو غطاء لعملهم السياسي العام. وهنا لا بد أن نعيد التذكير بأدبيات وأخلاقيات البحث العلمي. إن هذا الأخير يتوقف على عدد من العوامل والإمكانات المادية والبشرية، ولكن أهمها هم الباحثون أنفسهم، لأن الباحث هو الذي يخطط وينفذ عمليات البحث العلمي التي يمكن أن تخدم المجتمع وتساعد في تطوره، وعلى الباحث أن يتلزم بأخلاقيات مهنة البحث العلمي وبالقواعد التي تتضمنها قوانين المؤسسات والمراكز العلمية والبحثية⁵⁹ من صدق ونزاهة وحياد وحذر إبستمولوجي... إلخ.

ما يستشف من هذا التحدي أنه على الرغم من كثافة الخطاب الرسمي بالبلدان المغاربية بشأن ما تحقق نتيجة تطبيق معيار نسبة النمو الذي اتبعته، استجابة لإحياء أو إملاء المؤسسات المالية والاقتصادية الدولية، يسجل استمرار انهيار نماذج التنمية التي فرضتها المحافل الدولية، وهذا الانهيار هو المستديم وليس التنمية.⁶⁰ لم تنعكس هذه الأرقام "الوردية" لهذا النمو على البحث العلمي فحسب، بل على المستوى المعيشي للمواطنين أيضا، بسبب "عدم

⁵⁷ Eran Vigado-Gadot, *Building strong nations: Improving Governability and Public Management* (Farnham, Surrey, England; Burlington, VT: Ashgate, 2009): 2-3.

⁵⁸ اليونسكو للعلوم، تقرير اليونسكو للعلوم، 51.

⁵⁹ ريم محمد موسى، "أخلاقيات البحث العلمي ودورها في ترقية البحوث العلمية الاجتماعية والإنسانية"، شوهد في: 06/10/2020، في: <https://platform.almanhal.com/Files/2/87191>

⁶⁰ المنجرة، قيمة، 8-9.

مراعاة البعد الاجتماعي للنمو،⁶¹ بما يفيد أن منافع النمو لم تُوزَّع توزيعاً متكافئاً، ولم تصاحبها عملية إعادة توزيع للدخل العام بطريقة سليمة وعادلة، الأمر الذي قاد إلى تفشي ظاهرة الفساد التي باتت تتشكل في منظومة اجتماعية متكاملة. وإذا تأملنا حالة هذه البلدان بخصوص سوء توزيع الثروة والطرق غير المشروعة للاستيلاء عليها، نجد تشابهاً بينها، مع اختلاف في الدرجة وليس في النوع، بالنظر لفشل أنظمتها في خلق نظام اقتصادي تنافسي عادل تكون فيه المسافة بين السلطة والثروة واضحة. أثر هذا الوضع -ولا زال يؤثر- على وظيفة البحث العلمي وإنتاجيته ومفعوله، إذ كان لتحالف المال والاقتصاد والسلطة آثاراً سلبية لم تسعف في تحقيق الأهداف الإنمائية طويلة الأجل، وتحسين الأداء العلمي والتكنولوجي. هذا التحالف أدى، وفق خبراء اليونيسكو، إلى خلق توجه نحو تعريف الأمن القومي وفقاً لتعريفات عسكرية. نتيجة لذلك، يتم تخصيص الموارد للدفاع والميزانيات الأمنية والعسكرية، وليس لأنشطة البحث والتطوير التي يمكن أن تساعد في مواجهة الفقر والبطالة، وتآكل الرفاهية الإنسانية، والتي تستمر كوابئ في المنطقة.⁶² الدول صاحبة نسب الإنفاق العسكري الأعلى مقارنة إلى الناتج المحلي الإجمالي هي من دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

من باب التذكير

ترتيباً على ما سبق، نُذكر بأنه في مختلف الحقول والاختصاصات، توجد أطر علمية على مستوى عالٍ من الكفاءة والخبرة لم تنل حظها ونصيبها من الاهتمام والتشجيع في منظومة بحثية لا تزال تعاني من تضافر مشكلات جمّة، سواء فيما يتعلق بقلة الإمكانيات المالية والتقنية، أو هشاشة الإطار القانوني اللازم لتطورها، إضافة إلى ضعف بنى فضاءات البحث وبرامجها ومناهجها ومخرجاتها، وتواضع تحفيز "الباحثين العاملين" وتشجيعهم على البذل والاجتهاد، ما يدفع الكثير منهم إما إلى الانزواء الاضطراري، أو الاشتغال ضمن مجموعة صغيرة، أو الهجرة بحثاً عن فضاءات أرحب للعطاء والبحث. بيد أن ما ورد من معطيات حول دوافع هجرة الكفاءات أو وظائف مراكز البحث العلمي في السياق المغربي وحقيقة ما يعترض عملها من تحديات عامة ومشتركة أو خاصة وذاتية لا يجب أن يشكل عائقاً أو عامل إحباط في وجه القائمين عليها؛ إنها معطيات وبيانات وملاحظات لا تهدف إلى التبخيس من قيمتها أو التقليل من مجهودات الباحثين فيها، ولا من سعيهم الدؤوب إلى تجاوز كل الصعوبات والأعطاب التي ما زالت تعترض سبيل البحث العلمي، بقدر ما تطمح إلى تثمين تلك الجهود وإلى حث المسؤولين والمسيرين لهذه المؤسسات والهيئات البحثية إلى المضي قدماً في تذليل الصعوبات التي من شأنها أن تضعف من الحافزية أو التأثير المرغوب فيه. ولأن الرهان اليوم مرتبط، في علاقة بالحالة المدروسة، بكيفية الاستفادة من أبحاث العقول المهاجرة من منظور نقل تكنولوجيا المعرفة، ينبغي على مدبري مراكز الفكر أن يحرصوا على تقوية قدراتها المالية في أفق ضمان استقلالها المالي والعلمي والمؤسسي والمعنوي من حيث المقاربة، والخبرة التي تقدمها للفاعلين. وحذاً لو يتم الاشتغال على واجهتين متداخلتين: تعزيز اتفاقيات للشراكة مع مختلف الأطراف المعنية بأعمالها واجتهاداتها، واستعمال تدابير متنوعة لتقييم أثر وقيمة مخرجاتها، من خلال حساب مساهمتها في فهم السياسات وتحولاتها وتأثيراتها على الفرد والنخبة والجمهور حاضراً ومستقبلاً. على حدود هاتين الواجهتين، الأمل أن يحصل الاقتناع بأن البحث العلمي والأكاديمي ليس مجالاً للاستقطاب أو التهافت السياسي، أو لعبة في يد "السياسيين" أو ممتهمي الضحالة العلمية أو مناصريها، وإنما أساس بناء وطن يحتضن الكفاءة ويحرص على دعمها، وينتج الثروة بمختلف أشكالها ويتصدى لاحتكارها أو سوء استعمالها. القول بهذا رضوخاً لحركية الزمن في أفق التفكير في طريق سالك للنهضة والتنوير الحقيقيين بالاعتماد على الموارد الذاتية بالدرجة الأولى، الإنكار أو التجاهل

⁶¹ محمد عبد الشفيق عيسى، الفقر والفقراء في الوطن العربي، سلسلة أوراق عربية 35، شؤون اقتصادية 9 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، 15.

⁶² اليونيسكو للعلوم، تقرير اليونيسكو للعلوم، 449.

مكابرة وتعام لا غير، بل و "زيغ" عن القيم الحقيقية التي ينبغي الحرص على غرسها في نفوس وعقول الناشئة لترسيخ احترام العلم والعلماء والباحثين وعدم الاستخفاف بهم أو التراخي في توفير بيئة مناسبة حاضنة لإنتاجاتهم وإبداعاتهم. دون استحضار هذه القيم، ستستمر الخسارة، سواء المادية المرتبطة بصرف ملايين الدولارات على الأطر المهاجرة من المال العام من أجل تعليمها وتأهيلها وتكوينها دون استفادة الوطن من خدماتها، أو المعنوية المتمثلة في تزويد الدول المتقدمة بالذكاء المهاجر على الرغم من حاجة بلدان المنطقة المغاربية لخبرتها في إحداث التغيير المنشود في ظل استمرار التفكير طويل الأمد في مواجهة ثلاثية "الفقر والتخلف والفساد." إذا لم نغيّر من طريقة تفكيرنا وتدبيرنا، فإن هجرة الذكاء ستفاقم حتما. عسى أن تلتقط الرسالة الواضحة لـ "فيروس كورونا المستجد": لا يمكن الاستمرار في تبخيس قيمة البحث العلمي والقطاعات الحيوية المرتبطة به. وبين هذا وذاك، لا بد من إعادة تقييم اتفاقيات التعاون الدولي وقياس تأثيراتها العكسية على الاقتصاد والهجرة داخل بلدان المنطقة المغاربية بعد مرور أزيد من عشرين سنة على إبرامها. وبئس المصير، إذا جاز لي أن أستعير عبارة إدغار موران (Edgar Morin) في هذا السياق، إن كنا لا نريد فعل ذلك!⁶³

البيبلوغرافيا:

حركات، محمد. مفارقات حكامه الدولة في البلدان العربية. ترجمة محمد مستعد. ألمانيا: هانس سايدل، 2018. المنجرة، المهدي. قيمة القيم. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2007. صندوق النقد الدولي (إدارة الشرق الأوسط وآسيا). الاندماج الاقتصادي في المغرب العربي: مصدر للنمو لم يستغل بعد. واشنطن: صندوق النقد الدولي، 2018. فرجاني، نادر. "هجرة الكفاءات والتنمية في الوطن العربي." المستقبل العربي 80 (1985). مؤسسة الفكر العربي. "الدمغة العربية المهاجرة: خرج ولم بعد!" نشرة أفق، شوهد في: 22/09/2020، في: <http://bit.ly/2vR4KSd>

الورقة المرجعية للمؤتمر السنوي للعلوم الاجتماعية والإنسانية، في موضوع: "الشباب العربي: الهجرة والمستقبل"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدورة السادسة للعام الأكاديمي 2016/2017. اليونسكو للعلوم. تقرير اليونسكو للعلوم، نحو عام 2030. باريس-القاهرة: منشورات اليونسكو - أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، 2018. الخشاني، محمد. "هجرة الشباب العربي إلى دول الاتحاد الأوروبي: قراءة نقدية في السياسة الأوروبية للهجرة." عمران 21 (صيف 2017): 35-54. ظريف، شاكرو. "هجرة الكفاءات الجزائرية إلى الخارج (1991-2015): دراسة في الأسباب والانعكاسات." عمران 21 (صيف 2017): 109-140.

⁶³ حوار دافيد لبيبي وسيلفن كوراج مع إدغار موران، "المجلة الفرنسية L'Obs 18 (مارس 2020)، ترجمة محمد الشيباني، معجم الدوحة التاريخي للغة العربية، شوهد في: 05/10/2020، في: <https://cutt.us/yaOlf>

عبد القادر الأطرش، "مراجعة في: هاشم نعمة فياض، الهجرة المغاربية الخارجية: هولندا نموذجاً"، عمران 12 (2012): 173-180.

حوار رشيد اليزمي في برنامج "مغربون" بقناة الجزيرة، مسيرة البروفيسور رشيد اليزمي عالم الكيمياء ومكتشف القطب السالب لطائرات الليثيوم القابلة للشحن، شوهد في: 22/09/2020، في: <https://cutt.us/QCEYe>

حوار عبد الواحد عبد الصمد مع جريدة هسبريس الإلكترونية، شوهد في: 23/09/2020، في: <https://cutt.us/uXOXq>

حوار إلياس زرهوني في برنامج "موعد في المهجر" بقناة الجزيرة، شوهد في: 03/10/2020، في: <https://cutt.us/ldqS8>

بوالروايح، محمد. "كمال يوسف تومي.. الرجل العبقرى والرجل القرآني". شوهد في: 25/09/2020، في: <http://bit.ly/2TYFG5G>

كوان يو، لي. من العالم الثالث إلى الأول: قصة سنغافورة (1965-2000). ترجمة معين إمام. الرياض: مكتبة العبيكان، (2007).

برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. تقرير التنمية البشرية 2016. نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2016. الأمم المتحدة، الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة. تقرير الهجرة الدولية لعام 2015: الهجرة والنزوح والتنمية في منطقة عربية متغيرة. بيروت: لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا)، 2015. السحباني، عبد الستار. الشباب والهجرة غير النظامية في تونس: دراسة ميدانية للتمثيلات الاجتماعية والممارسات والانتظارات. تونس: المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2016.

المندوبية السامية للتخطيط. مذكرة حول مميزات السكان النشيطين العاطلين. شوهد في: 29/09/2020، في: <http://bit.ly/39bUcFh>

بيان صحفي صادر عن البنك الدولي عقب صدور تقريره حول الهجرة العالمية (14/06/2018)، شوهد في: 03/10/2020، في: <https://cutt.us/R3DKg>

منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة. ورقة توجيهية حول: التعليم كوسيلة للتعافي: معالجة صدمة النزوح من خلال التعلم الاجتماعي والعاطفي. باريس: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، أبريل 2018.

مالكي، امحمد. "مكانة الجامعات العربية في تصنيف شانغهاي لعام 2019". شوهد في: 13/10/2020، في: <http://bit.ly/2NoM3Lw>

مالكي. "الأدوار المطلوبة من مراكز الفكر العربي". شوهد في: 14/10/2020، في: <https://cutt.us/7zh49>

ولد محمد المختار، محمّدو. "مراكز البحث العلمي في موريتانيا: سياق النشأة وتحديات الواقع". شوهد في: 08/10/2020، في: <http://aqlame.com/article12767.html>

محمد موسى، ريم. "أخلاقيات البحث العلمي ودورها في ترقية البحوث العلمية الاجتماعية والإنسانية." شوهده في: <https://platform.almanhal.com/Files/2/87191>، في: 06/10/2020.

عبد الشفيح عيسى، محمد. *الفقر والفقراء في الوطن العربي*. سلسلة أوراق عربية 35، شؤون اقتصادية 9. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012.

"حوار دافيد لبيلي وسيلفن كوراج مع إدغار موران." *المجلة الفرنسية L'Obs* 18 (مارس 2020)، ترجمة محمد الشيباني، معجم الدوحة التاريخي للغة العربية، شوهده في: 05/10/2020، في: <https://cutt.us/yaOJj>

حوار "تيل كيل" مع رشيد اليزمي، شوهده في: 22/09/2020، في: cutt.us/gn3s9//:<https://cutt.us/WP9Gx>، في: 06/10/2020، في: <https://cutt.us/WP9Gx>

مزامح، هيثم. "أزمة البحث العلمي في العالم العربي." شوهده في: 09/10/2020، في: <http://www.beirutme.com/?p=25817>

حوار رشيد اليزمي مع موقع تاونات، شوهده في: 12/10/2020، في: <http://taounate.net/archives/1247>

"حوار مجلة زمان مع عبد الله العروي." قنطرة، شوهده في: 24/10/2020، في: <https://cutt.us/ykT80>

Fondation européenne pour la formation et Association marocaine d'études et de recherches sur les migrations. *Migration et compétences au Maroc: Résultats de l'enquête 2011-12, sur la migration et le lien entre compétences, migration et développement*. Turin: Fondation européenne pour la formation, 2013.

Saib Musette, Mohamed (ed.). *De la fuite des cerveaux à la mobilité des compétences?: Une vision du Maghreb*. Alger: Centre de recherche en économie appliquée pour le développement (CREAD), 2016.

Vigado-Gadot, Eran. *Building strong nations: improving governability and public management*. Farnham, Surrey, England; Burlington, VT: Ashgate, 2009.